

الأبعاد الجمالية للمكان في الدراما التلفزيونية السورية

سلمى حميدان

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ملخص:

يُعنى هذا البحث بدراسة الأبعاد الجمالية للمكان في الدراما التلفزيونية السورية، انطلاقاً من الدور الذي يلعبه المكان في تعميق المعنى الدرامي، إذ تعتبر الدراما التلفزيونية من أكثر الفنون المرئية اهتماماً بالمكان الذي من خلاله يُمنح كل عمل خصوصيته في التعبير عن الأحداث التي تقع ضمن بيئة هذا الحيز، ومن هنا تأتي أهمية هذا البحث لتناوله المكان الدرامي الذي يرتبط بعلاقة وثيقة مع الأحداث و ينفرد بطاقة تعبيرية ذات بعد دلالي وجمالي.

This thesis study the aesthetic dimensions of place in the Syrian TV drama, based on the role of place in deepening the meaning of the drama, it considers the as is the most visual arts interest in the place which is through it we gives each work its specificity in the expression about the events that fall within this space environment , hence the importance of this research dealt with the dramatic location which is associated with a close relationship with the events and unques graphical card with dimensional semantic and aesthetic.

مقدمة:

يلعب المكان دوراً مهماً في الدراما التلفزيونية، و يعتبر حالة وجدانية و شعورية لما يمتلكه من قدرة على نقل تفاصيل بيئة و زمن الأحداث، و يقوم الفضاء الدرامي على جملة عناصر تتشكل في علاقات ترابطية تعمل على تنظيمه و إبراز الجوانب الدلالية و الجمالية فيه، و يؤثر تأثيراً بالغاً في نفسية المشاهد باعتباره مناخاً تعبيرياً تتحرك فيه الشخصيات و يرتب الديكور و تبنى الحبكة الدرامية، يقول أندري بازان: " إن بإمكاننا تفرغ الصورة من أية حقيقة إلا حقيقة واحدة هي حقيقة المكان"¹

فالمكان حاجة ملحة للخروج بالحالة البصرية للعمل الدرامي إلى أفق الرؤية الأكثر موضوعية للمشاهد، و يعد الإخفاق في اختياره إخفاقاً للمعنى و الجمال الدرامي، لأن الجانب الجمالي للمكان درجة من الجودة تحسب للقائمين على العمل لقدرتهم على تقديم أمكنة مغايرة لما يعهده المشاهد أو تقديم المكان المعتاد بصورة فنية مختلفة.

¹علي أبو شادي: لغة السينما، وزارة الثقافة، دمشق-سوريا- 2006، ص: 68.

وقد جاء هذا البحث للإجابة على التساؤل الآتي: فيم تتمثل الأبعاد الجمالية للمكان في الدراما التلفزيونية السورية؟

أهمية البحث:

تكمن أهمية البحث في كونه يعنى بدراسة الأبعاد الجمالية للمكان في الدراما السورية التلفزيونية، انطلاقاً من الدور الذي يلعبه المكان في تعميق المعنى الدرامي، الذي يرتبط بعلاقة وثيقة مع الأحداث و ينفرد بطاقة تعبيرية ذات بعد دلالي وجمالي.

أهداف البحث:

يهدف هذا البحث إلى التعرف على الأبعاد الجمالية للمكان في الدراما السورية التلفزيونية.

أولاً/ تحديد المصطلحات:

1- مفهوم الأبعاد الجمالية:

● الأبعاد: يعني هذا المصطلح عند القدامى أقصر امتداد بين شيئين ، و جعل المتكلمون البعد امتداداً موهوماً مفروضاً في الجسم أو في نفسه صالحاً لأن يشغله الجسم.¹

وهو مصطلح تصويري اقتبس من الهندسة، و يستعمل في جل المفاهيم الإجرائية المرتبطة بالدلالة. ويعرف البعد سيكولوجياً على أنه: سمات الشعور ومظاهر عملياته، من شدة و ضعف، ووضوح وغموض، وطول وقصر.²

● الجمالية: يدل مصطلح الجمالية على العلم الذي يبحث في معنى الجمال من حيث مفهومه و ماهيته و مقاصده.

وتتناول الجمالية المبادئ العامة لظواهر الفن و الجمال وتتخذ البعد الجمالي للفن محوراً لاهتمامها قصد الوقوف على المفاهيم الجمالية، و إظهار ملامحها الجوهرية بهدف تحليل ماهيتها، وذلك من خلال دراسة العمل الفني و تذوقه و إبداعه.³

والجمالية في الشيء تعني أن الجمال فيه حقيقة جوهرية و غاية مقصدية، فما وجد إلا ليكون جميلاً، وتتنوع الجوانب الجمالية في الفن بين جماليات الشكل و المضمون و الانسجام بين الأجزاء المكونة للعمل الفني.

¹جميل صليبا: المعجم الفلسفي، الهيئة العامة لشؤون المطابع ، القاهرة-مصر- 1977، ص: 137.

²يوسف خياط: معجم المصطلحات العلمية و الفنية، دار لسان العرب، بيروت-لبنان- دت، ص: 30.

³أميرة حلمي مطر: مقدمة في علم الجمال، دار الثقافة للنشر و التوزيع ، القاهرة-مصر- 1976، ص: 70.

• الأبعاد الجمالية: تعني إيجاد مسافة وجدانية واضحة تفصل بين شخصية القارئ أو المشاهد و العمل الفني، و تميز بين الحقيقي و الافتراضي فيه.¹

والمقصود بالأبعاد الجمالية في هذه الدراسة: العناصر الفنية المرتبطة بالمكان التي تحقق متطلباته الجمالية و التشكيلية في العمل الدرامي التلفزيوني، و تلبي حاجة المشاهد في التمتع بالجمال.

2- مفهوم المكان:

ورد تعريف المكان في اللغة بمعنى الموضوع الذي يستوعب الأشياء و يحتضنها.² والمكان في السينما يعني الوسط التعبيري الرمزي الذي يمثل الحجم الذي يشغله الممثل في مسافة معلومة ويتضمن أفكاراً.³

ويعرفه طاهر عبد مسلم بأنه الحيز الذي تجري فيه الأحداث عبر الصورة المتحركة و يخضع لانتقائية تميزه عن الأماكن الأخرى وهو إما مكان طبيعي أو مكان فيزيقي بناه الإنسان و يخضع لاشتراطات البعد النفسي والاجتماعي والثقافي، ويقع إظهاره من خلال الوسائل التعبيرية الصورية.⁴

والمقصود بالمكان في هذه الدراسة : الحيز الذي يتم فيه تصوير الأعمال الدرامية التلفزيونية السورية، سواء كان واقعياً أم خيالياً، طبيعياً أم مصنوعاً، ويتم توظيفه في سياق درامي ليصبح وعاء للحدث و الشخصيات، له قوة تأثير و قدرة على التعبير.

3- تعريف الدراما التلفزيونية:

تعرف الدراما التلفزيونية على أنها: " مرآة الحياة، التي تعكس الاهتمامات الخاصة بالبشر، وترتبط خبرات الأفراد بالبناء الأخلاقي و القيمي، وتكون قادرة على توسيع تعاطف المشاهدين، وجذبهم بعيداً عن قيود الواقع، لتقودهم إلى رؤية متعمقة في العلاقات الاجتماعية بين الأفراد من التشويق و التعاطف و الإثارة"⁵

و تعرف على أنها نوع من الأنواع الفنية التي واكبت ظهور التلفزيون تحكي رواية أو قصة ما عبر تشخيصها على الشاشة.¹

¹ سعيد علوش: معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، ط1، دار الكتاب اللبناني، بيروت- لبنان- 1985، ص: 51.

² ابن منظور: لسان العرب، بيروت-لبنان- 1956، ج:13، ص: 414

³ لوي دي جانتي: فهم السينما، ترجمة: جعفر علي، دار الرشيد للنشر، بغداد-العراق- 1981، ص: 106.

⁴ طاهر عبد مسلم: عبقرية الصورة و المكان(التعبير، التأويل، النقد)، دار الشروق، 2000، ص: 25.

⁵ Sun thon ham, tony purvis. **television drama: theories and identities**, ne york :palgravemacmillan.(2005),p:21.

و تعرف أيضا بأنها قصة يتم معالجتها تلفزيونيا وتروى بواسطة شخصيات مثيرة للاهتمام يجري على ألسنتها حوار واضح فيه سمات الحقيقة.²

وما نقصده بالدراما التلفزيونية في هذه الدراسة : الأعمال الفنية السورية الخاصة بالتلفزيون والتي تعالج موضوعات مختلفة، و يقوم بعرضها مجموعة من الشخصيات تؤدي أدوارا متعددة، وتستعين بعناصر فنية كالديكور والإضاءة... لتقديمها بأفضل صورة، و قد تكون هذه الأعمال إما مسلسلات أو تمثيلات....

ثانيا/ التوجهات النظرية لمفهوم المكان: إن مصطلح المكان له عدة دلالات ، حسب اختلاف استعمالته، وكذا اختلاف المنطلقات الفكرية و الحقول الدراسية للعلماء كونه اقتحم العديد من الميادين العلمية و الأدبية، و قد نال هذا المفهوم اهتمام الكثير من الباحثين في مجالات و تخصصات عديدة، و قبل الحديث عن التوجهات النظرية لمفهوم المكان سنتطرق أولا لمعاني هذه اللفظة في القرآن الكريم فقد وردت في ثمانية و عشرين موضعا فجاءت بمعنى البدل مثال في قوله تعالى: " قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ"³ ووردت بمعنى المحل أو الموضع مثال قوله تعالى " وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا"⁴ ووردت بمعنى المنزلة مثال قوله تعالى: " حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا"⁵

وقد ركزت الموسوعات الفلسفية على مصطلح المكان و تعمقت في تفسيره و بحثت في ما تعلق به من مصطلحات فعرف على أنه الموضع و المحل المحدد الذي يشغله الجسم، وهو مرادف الامتداد.⁶ ويعتبر أفلاطون أول من صرح بمفهوم اصطلاحى للمكان فعده حاويا و قابلا للشيء، ثمميزه أرسطو بأربع صفات فعده الحاوي الأول وأنه ليس جزء من الشيء و هو مساوي للشيء المحوي و به الأعلى و الأسفل، وهناك المكان الخاص الذي يحويك دون غيرك و المكان المشترك الذي يكون حيزا لجسمين أو أكثر⁷، وقد تناول مفهوم الخلاء حيث يرى أن المكان الذي لا يوجد فيه جسم محسوس يعد خلاء.

¹عز الدين عطية المصري: الدراما التلفزيونية مقوماتها و ضوابطها الفنية-دراسة تحليلية وصفية- قسم اللغة العربية ، كلية الآداب، الجامعة الإسلامية، غزة-فلسطين- رسالة ماجستير، 2010، ص: 98.

²عادل النادي: مدخل إلى فن كتابة الدراما، مؤسسات عبد الكريم بن عبد الله للنشر و التوزيع، تونس، 1987، ص: 221.

³سورة يوسف، الآية: 78.

⁴سورة مريم الآية: 16.

⁵سورة مريم الآية: 75.

⁶جميل صليبا: المعجم الفلسفي، مرجع سابق، ص: 412.

⁷عبد الرحمن بدوي: الموسوعة الفلسفية، ط1، المؤسسة العربية للدراسات و النشر، بيروت-لبنان- 1984،

وفي الفلسفة العربية الإسلامية انقسم الفلاسفة في مفهومهم للمكان إلى ثلاثة اتجاهات كالاتي:¹
الاتجاه الأول: يرى الكندي و الفارابي و إخوان الصفا و فلاسفة بغداد أن المكان هو سطح الجسم الحاوي.
الاتجاه الثاني: يرى أبو بكر الرازي أن المكان بعد لا متناه، وميز بين نوعين من الأماكن و هما المكان المطلق الذي لا يحتوي جسما محسوسا وهذا يساوي الخلاء، و المكان الجزئي الذي لا يمكن تصوره دون متمكن ولا ينتهي بنهاية الجسم بل هو موسع في الجهات.

الاتجاه الثالث: يرى ابن الهيثم وابن رشد أن المكان هو النهايات المحيطة بالجسم الطبيعي²
أما ابن سينا فينظر إلى المكان على أنه السطح الباطن من الجرم الحاوي الماس للسطح الظاهر للجسم المحوي.³
وفي الفلسفة الحديثة يرى ديكرت أن المكان هو ماهية الأشياء وجوهرها المادي وليس في الكون خلاء.⁴
وميز هوفدينغ بين المكان النفسي و المكان المثالي حيث يرى أن المكان النفسي هو الذي ندركه بجواسنا ولا ينفصل عن الجسم المتمكن، أما المكان المثالي فنذكره بعقولنا وهو مجرد و مطلق.⁵
أما في القرن التاسع عشر فقد ظهرت مفاهيم جديدة للمكان و تصورات لأبعاد عديدة له.
و إجمالاً يمكن القول أن المفهوم الفلسفي للمكان يكاد يكون متشابهاً إلى حد بعيد فالتصورات الفلسفية الإسلامية لم تخرج عن المفاهيم المتداولة في الفلسفة الغربية، باستثناء بعض الإضافات، كذلك المفهوم الغربي الحديث فهو لم يتعد القواعد الفلسفية القديمة.
أما هندسياً فالمكان وسط غير محدود يشتمل على الأشياء⁶ وذو أبعاد ثلاثة هي الطول و العرض والارتفاع.

ج: 11، ص: 461.

¹حسن مجيد العبيدي: نظرية المكان في فلسفة ابن سينا، ط1، دار الشؤون الثقافية العامة، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد-العراق - 1987، ص: 39، 179.

²عبد العزيز لعمول: مشكلة المكان في فلسفة ابن رشد، مجلة فكر ونقد، ع: 13، مجلة الكترونية، تاريخ الزيارة، 2015/10/31،
http://www.fikrwanakd.aljabriabed.net/13_table.htm، 18:05

³حسن مجيد العبيدي: نظرية المكان في فلسفة ابن سينا، مرجع سابق، ص: 179.

⁴محمد يعقوبي: الوجيز في الفلسفة، ط3، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر، دت، ص: 350

⁵جميل صليبا: المعجم الفلسفي، مرجع سابق، ص: 413.

⁶جميل صليبا: المعجم الفلسفي، مرجع سابق، ص: 191.

و في علم الاجتماع يعرف المكان على أنه امتداد للجسد و معبر عن قاطنيه، فوصف المرء للأماكن و انتقاله عبرها يسمح له بالتعبير عن القيم الفردية و الجماعية لقاطني تلك الأماكن ووصف حالتهم الاجتماعية.¹ أما علماء النفس فيرون أن الصفات الموضوعية للمكان ماهي إلا وسيلة من وسائل قياسية تسهل التعامل بين الناس في حياتهم اليومية.²

وقد لقي مصطلح المكان اهتماما دراسيا خاصا لدى الأدباء فنجدته تميز بخصوصية كبيرة في الدراسات الأدبية أكثر من غيرها من المجالات، حتى قيل: " أن العمل الأدبي حين يفقد المكانية فهو يفقد خصوصيته وبالتالي أصالته"³

كما حددت مسارات ثلاثة للأديب يجب أن يحتذيها حين يورد المكان في النص الأدبي هي:⁴ أن يصبح مكان القصة أو القصيدة هوية تاريخية ووطنية ، وأن يحمل طموحات الأديب الثقافية، و أن يتحول لدى الأديب الفعل في المكان فعلا في البحث عن الشخصية المستقبلية و المتطلعة إلى الواقع.

ثالثا/ المكان الفني الدرامي: إن ما يدفعنا للحديث عن المكان الفني هو العلاقة الوطيدة التي تربط بين الرواية أو النص الأدبي و العمل الدرامي، ويستعمل مصطلح المكان الفني اعتقادا بأن جميع الفنون تحتوي على قدر من المكان تختلف صياغته من فن لآخر تبعا للقوانين المتحكمة في النوع الفني⁵، ويعد المكان عنصرا فعلا في البناء الدرامي وجزءا هاما من النسيج الفني لما يحتويه من جمال و عمق اتصالي و دلالي ويتسم المكان الفني بجملة من الخصائص أبرزها:⁶

- أنه يختزل كمية من النشاط البشري و الإبداعي.
- سهولة التواصل مع المكان الفني.
- تميزه بالطبيعة التخيلية.
- انضمام المكان الفني للتراث الثقافي والروحي للمجموعة المتعاملة معه.
- قابليته للتعبير اللاهائي و تلقي المؤثرات المختلفة.

¹غيداء أحمد سعدون: المكان والمصطلحات المقاربة له-دراسة مفهوماتية- مجلة أبحاث كلية التربية الأساسية، ع: 2، مج: 11، ص: 246.

²عز الدين إسماعيل: التفسير الفني للأدب، دار الثقافة، بيروت- لبنان- دت، ص: 67.

³غاستونباشلار: جماليات المكان، ترجمة غالب هلسا، دار الحرية للطباعة، 1980، ص: 6.

⁴غيداء أحمد سعدون: المكان والمصطلحات المقاربة له، مرجع سابق، ص: 248.

⁵Gerardginette figures2 Ed seuil Paris 1969 p:45

⁶صلاح صالح: قضايا المكان الروائي في الأدب العربي المعاصر، ط1، دار شرقيات للنشر و التوزيع، 1997، ص: 16.

وتبرز المعالجة الفنية للمكان في الأعمال الدرامية التلفزيونية من خلال تقديم صورة دقيقة عنه وإبراز دلالاته التي تضفي عليه جمالا و تعبر بعمق عن المضامين التي يسعى إلى تحقيقها، وسواء كان المكان واقعا أم خياليا فباستطاعة الدراما تحويله إلى مكان فني بامتياز وتوظيفه في سياق الأحداث.

ويتم اختيار المكان الفني الدرامي من خلال معايير تخضع لمبدعي العمل و أساليبهم ، وذلك بالتركيز على تقديمه بحرفية عالية لتحقيق التوافق بين الرؤيا الجمالية و المنظر البصري المناسب للسياق الدرامي.

وقد اختلفت الاتجاهات الفنية في اختيار المكان الفني الدرامي بين الواقعي والانطباعي، فالمخرج الواقعي يحاول اختيار الأماكن و المواقع الحقيقية للأحداث لتكون أكثر دلالة وعمقا في تجسيد الحياة الإنسانية و التعبير عنها بصدق¹، ويبرز هذا أكثر في الدراما الاجتماعية التي تدور أحداثها في الأحياء الحقيقية بعيدا عن الاستديوهات، وقد اهتمت الدراما السورية كثيرا بالجماليات التي تزخر بها المدن و القرى و البيئة السورية عموما، لتضيف للنص الدرامي لغة غير منطوقة تبرز عشق المدينة و شوارعها فقد قدم المخرج هشام حقي (خان الحرير) و (ذكريات الزمن القادم) في صورة تبرز بدقة بطولة المكان، في حين ركز المخرج نبحت إسماعيل أنزور على إبراز صورة سياحية عن المكان السوري في أعماله المشهورة بالفنتازيا التاريخية مثل (الجوارح)، (الكواسر)، (الموت القادم إلى الشرق).

وفي (مسلسل عصيالدمع) و مسلسل (أحلام كبيرة) للمخرج حاتم علي تتجلى جمالية المكان في الفواصل المشهدية المملوءة بالحركة و التي تبرز تفاصيل الشوارع و الطرقات ونوافذ البيوت، كما رسم (مسلسل الغفران) لوحة مسائية لدمشق تتعالى بأضوائها الليلية مبرزة روعة الحياة وجمالها هناك، و في مسلسل (هوى بحري) نجد المخرج باسل الخطيب يدمج بين جماليات الجغرافيا الطبيعية و خصوصيات البيئة السورية من خلال إبراز مشهد بحري يروي حكايات خرافية، كما كان مسلسل (الانتظار) بمثابة نسخة صادقة عن الحياة السورية المعاصرة تبرز المكان بشقيهاهامشي و المنظم للعمران، وفي مسلسل (ضبيعة ضابغة) الكوميدي الساخر ركز المخرج الليث حجوة على إظهار المكان الواقعي في بيئة الريف السوري دون اللجوء إلى إبراز المكان السياحي و تعديل الصورة أو إخفاء معالمها الحقيقية، وفي الدراما التاريخية استطاع المخرجون الاستفادة من الأماكن المختلفة للبيئة السورية على غرار الغابات الشاسعة والسهول و القلاع و الأماكن الأثرية، بل وانتقلوا للتصوير في بعض مناطق المغرب العربي أيضا مثل ما قام به المخرج حاتم علي عند تصويره ثلاثية الأندلس بين المغرب و دمشق.

¹عبد الله حسين: الاشتغال الدلالي للمكان بين النص المسرحي و الفيلم السينمائي، مجلة كلية الآداب، ع: 102، بغداد-العراق - ص:

أما المخرج الانطباعي فيعالج المكان من خلال استحداث الكثير من التأثيرات و الأجواء الغامضة و المثيرة لعكس دلالاتها السيكولوجية المختلفة على الجو النفسي للعالم المحيط بالأحداث، فيهتم بالديكورات والأشياء ذات الدلالة الخاصة في العمق المكاني الذي توجد فيه الشخصيات¹، ومثال هذا ما نجده في بعض المسلسلات و التمثيليات العربية التي تتخذ مدن الإنتاج الإعلامي كمكان لتصوير أعمالها، وقد ركزت بعض الأعمال السورية على تقديم صورة سياحية فلكلورية عن المكان فنجد المخرج بسام الملا في مسلسله المشهور (باب الحارة) قد أقام بناءه و علاقته الداخلية على سلسلة تفاعلية مع المكان، واقتصر على حارة تصنع في بوتقتها حياة متنوعة مليئة بصور التعايش و التضامن و العلاقات الاجتماعية و الإنسانية، و تجلّى تركيزه على المكان في إبراز الجانب العمراني الذي يعكس الحالة الاجتماعية و النفسية لأبناء تلك المرحلة إذ أن باب الحارة واسع، و عال و بيوته متجاوزة محمية داخل سور، وعلى نفس النهج سار المخرج إياد نحاس في مسلسل (الشام العديّة)، و المخرج سيف الدين سبيعي في مسلسل (أهل الولاية).

إلا أن الملاحظ أن هذين الاتجاهين يتداخلان من أجل تحقيق الانسجام و التوافق مع فكرة العمل الدرامي و إيصالها إلى المشاهد بصورة مؤثرة و فعالة.

رابعاً/ العناصر المكانية في الدراما التلفزيونية: يكتسب المكان في الدراما بعدا جماليا من خلال ارتكازه على مجموعة عناصر تحمل إحياءات و معاني و تمنح المشاهد متعة و إحساسا فنيا جميلا، وتمثل هذه العناصر في الآتي:²

1- الموقع: يعرف الموقع على أنه ما تشغله الأجسام من فراغ، ويكون لها فيه أبعاد موضوعية، تنتظم في أشكال و بمقدار صلة الموقع بالعوامل الأخرى يتحقق التأثير الذي يوجد للأجسام من خلال دلالتها على قيم معنوية

ويحمل الموقع عدة دلالات فما هو عال يعطي معنى الترفع و السمو، أما دلالة ما هو منخفض فتعطي معنى الانحدار أو التقهقر.

2- الاتجاه: هي علاقة الشكل بالاتجاهات الرئيسية للمجال، وليس لكل الأشكال اتجاه إذ يتوقف على ما إذا كان هناك إحساس بحركة توجيهية في الشكل أم لا، فالدائرة مثلا تعد شكلا ساكنا أما المستطيل أو أي شكل له طبيعة خطية فله في المجال إحساس بالحركة في اتجاه محوره الطولي و تنقسم الخطوط إلى أربعة اتجاهات أساسية هي: الاتجاه الأفقي، الاتجاه العمودي، الاتجاه المائل لليسار، الاتجاه المائل لليمين.

¹عبد الله حسين: الاشتغال الدلالي للمكان بين النص المسرحي و الفيلم السينمائي، مرجع سابق، ص: 599

²طاهر عبد مسلم: عبقرية الصورة و المكان، مرجع سابق، ص: 43، 41.

3- **الحجم:** للأشياء و الموضوعات المنظورة أحجاما هي ثقلها النوعي و تجسيد لمكوناتها الفيزيائية، وكشف وجودها في المكان ضمن المعايير الموضوعية للقياس و تحديد ذلك الثقل، حيث يمكن جعل الأشياء صغيرة أو كبيرة، و تنقسم الأحجام إلى أحجام هندسية كالكروية و الأسطوانية و أحجام طبيعية يستطيع الإنسان صقلها مثل الصخور و الأشجار، و أحجام صناعية كالألات و الأثاث و المستلزمات اليومية.

4- **الملمس:** هو تعبير يدل على الخصائص السطحية للمواد و هو خليط يجمع بين الإحساس الناجم عن الملمس و الناجم عن الإدراك البصري و هو يرتبط بالإدراك البصري، ويرجع الاختلاف البصري للملمس من خلال ثلاثة عوامل هي:

- مدى انعكاس الضوء إذا أسقط على مواد وخامات مختلفة.

- اللون و يدخل ذلك في خصائصه و قيمته.

- الإعتام أو الشفافية أو النصف شفافية .

5- **العمق:** تستوعب الكاميرا العناصر المهيأة للتصوير في ترتيب معين في كل لقطة، ويعد العمق من الوسائل المهمة التي تتيح ترتيب الأشياء و الأجسام وفق أبعاده متعددة ابتداء من أقرب نقطة من العدسة حتى أبعدها حيث يجري تدرج الأشياء، و العمق من الوسائل التي توظف في تركيب المكان.

خامسا/ المحددات المكانية في الدراما التلفزيونية: يُعد المكان الدرامي مناخا موضوعيا للشخصيات و وسطا تُحتضن فيه الأفعال و تتنامى، و هو في سياق تعبيرى قوامه تعدد المناظر التي تؤثر في البناء الدرامي و كلما يحيط بالحدث أو يظهر خلفه "منظر غرفة، سلسلة جبلية، مكان رحب في الهواء الطلق..."، و يشكل المكان بجزئياته (ديكور، زمان، إضاءة، شخصيات...) سلسلة متتابعة من التأثيرات الدالة¹ تتشابك لتضفي بعدا جماليا على المكان الدرامي و تتمثل هذه المحددات في ما يلي:

1- **الزمان:** يعتبر الزمان من أهم المحددات المكانية في الدراما التلفزيونية حيث تعد العلاقة بين الزمان والمكان علاقة أساسية تشخص جدلية الواقع الفني في حد ذاته،² فهما مترابطان بشكل ملفت للانتباه، و العلاقة التي تربطهما في العمل الدرامي هي علاقة تكامل فكل منهما يكمل الآخر ومن ثمة لا وجود لأحدهما دون الآخر.

¹ طاهر عبد مسلم: عبقرية الصورة و المكان، مرجع سابق، ص: 131

² أحمد بوخاري: دلالات المكان في الومضات الإشهارية التلفزيونية -دراسة تحليلية سيميولوجية مقارنة بين متعاملي الهاتف النقال نجمة و جيزي- رسالة ماجستير غير منشورة، كلية العلوم السياسية والإعلام، قسم علوم الإعلام والاتصال، جامعة الجزائر، 2009/2008، ص: 83.

فإذا كان المكان هو المسار الأفقي فإن الزمن لا بد أن يكون هو المسار العمودي، و هذان المساران يشكلان مساحة تتحرك فيها الشخصيات الدرامية التي لا تكون معروفة إلا من خلال فعالية العلاقة بين المكان والزمان.¹ ومن الأساليب الفنية التي تبرز جمالية المكان الدرامي وتفي بأغراض عنصر الزمان أسلوب الاختزال الزمني و أسلوب الارتداد و الإبطاء و الاستباق و التي يتم بواسطتها التفاعل بين الحاضر والماضي و تحقيق الغايات الجمالية للعمل الدرامي، و ينقسم الزمان في الأعمال الدرامية إلى ما يلي:²

● **الزمن الدرامي:** تفرضه مقتضيات الحكمة، ورسم الشخصيات والموضوع وغيرها من ملامح التطور الروائي تؤسسه وتبنيه أحداث ضخمة و تحذف مراحل من الحدث ولا تصور كلها وهو مقنع وكاف من الناحية الجمالية.

● **الزمن الطبيعي:** وهو الذي يعرض كافة أطوار الحدث الدرامي.

● **الزمن التأثيري:** وهو الزمن الذي يتم فيه تنسيق الأحداث ليكون لها تأثيرات معينة على إحساس المتفرج بالزمن.

● **الزمن المقلوب:** وهو القائم على الاسترجاع الذي يحيل إلى أماكن ماضية، إذ الاسترجاع يقودنا إلى أماكن أخرى مخبأة ومطمورة في ذاكرة الشخصية أو أنها تقع ضمن الأماكن الشخصية والسرية التي لا يمكن بلوغها بيسر وسهولة، فضلا عن ذلك فإن الزمن يعكس خصائص مكانية محددة من خلال السياق التاريخي الذي يطبع بعض الأشرطة حيث أن التاريخ يجعل للأماكن خصوصية مميزة يكون فيها الزمن أداة للتعبير و لتعزيز البناء المكاني.³

و تعتبر تقنية الارتداد (فلاش باك) الأكثر شيوعا في الدراما السورية و تعمل على المزج بين اللحظة الآنية و الزمن الماضي، فقد اعتمد المخرج الليث حجوكليا في مسلسل (الندم) على هذه التقنية بالانتقال بين زمنين مختلفين وهما العام 2003 و العام 2015 ليعرفنا على حكاية إبراهيم غول و الملفت للانتباه هنا أن مشاهد الفلاش باك ملونة و الآنية بالأبيض و الأسود، فتجلت جمالية المكان من خلال التلاعب بالزمن و التركيز على الماضي و إهمال الحاضر. وكمثال آخر عن التوظيف الزمني في الدراما السورية نجد دراما البيئة الدمشقية (خاتون)، (عطر الشام)، (باب الحارة)، (طوق البنات)، (صدر الباز).. وغيرها و التي ركزت على زمن افتراضي يكاد يكون متشابها.

¹حبيوبة محمد آبادي: جماليات المكان في قصص سعيد حورانية، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق - 2011، ص: 124.

²عقيل مهدي يوسف: جاذبية الصورة السينمائية، دار الكتاب الجديد، بيروت-لبنان - 2001، ص: 129.

³طاهر عبد مسلم: عبقرية الصورة و المكان، مرجع سابق، ص: 86.

2- الإضاءة: تُعد الإضاءة عنصرا فنيا و دراميا يقيّم موضوعا ما أو شخصية من خلال حصرها و عزلها في دائرة الضوء، فهي تتغلغل في الصورة وتلتحم مع عناصرها فتفسر الأشياء وتصنفها من خلال التدرج في مستويات الضوء و الظل،¹ و لاستخدام الإضاءة دور مهم في خلق الجو العام و الحالة المزاجية أو التأثير النفسي الذي يجب أن تخلقها الصورة عند المشاهد بما يتناسب مع سير الأحداث و طبيعة المكان²، و تؤدي الإضاءة أغراضا هندسية تقنية تتمثل في إضاءة المنظر أمام الكاميرا وتحقيق التوازن الواقعي للدرجات اللونية للحصول على أفضل صورة ممكنة، كما تؤدي أغراضا فنية جمالية تتمثل في:³

- الحصول على أفضل تكوين ممكن، و ذلك عن طريق توزيع الأضواء و الظلال.
- خلق الإحساس بالوقت و الزمن الذي تجري فيه الأحداث.
- تدعيم القيم الدرامية و إبراز موضوع القصة و لوئها.
- استخدام الأضواء و الظلال الشاحبة في التراجيديا، و استخدام الساطعة المبهجة في الكوميديا مثلا".
- إخفاء مسحة جمالية على المكان باستخدام الإضاءة الهادئة، و إبراز الجانب المطلوب، و إخفاء العيوب.
- تجسيد الإحساس و خلق حالات مزاجية خاصة، مثل: الإحساس بالمرح، الكآبة، الحزن...
- إظهار جوانب معينة من المنظر و إبرازها و التأكيد على وجودها، أو إخفائها و التقليل من أهميتها.
- و الإضاءة بصفة عامة لغة بصرية تسهم في إظهار التعابير الدرامية و السيكولوجية للمكان، كما بإمكانها تجسيد العمق المكاني للمشهد و الذي بدوره يساهم في ترتيب الأشياء و الأجسام وفق أبعاد متعددة .
- وكمثال عن التوظيف الموفق للإضاءة في الدراما السورية ما قام به المخرج رامي حنا في مسلسل (غدا نلتقي) حيث استخدم الكثير من العتمة لتصوير حياة اللاجئين السوريين في بيروت، معتمدا اللون الرمادي المحايد، وبتغيير تلك الإضاءة تدريجيا في المشاهد التي تظهر باريس، وفي مسلسل (دليلة و الزبيق) نلاحظ استخداما احترافيا للإضاءة من قبل المخرج سمير حسن إضافة إلى الفواصل الجغرافية المتقنة و التي تعتبر جديدة في الدراما

¹فايزة بخلف: خصوصية الإشهار التلفزيوني الجزائري في ظل الانفتاح الاقتصادي-دراسة تحليلية سيميولوجية لبنية الرسالة الإشهارية- رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية العلوم السياسية، قسم علوم الإعلام و الاتصال، جامعة الجزائر، 2005/2004، ص: 128.

²عبد الباسط سلمان المالك: التشويق رؤيا الإخراج في الدراما السينمائية و التلفزيونية، ط1، الدار الثقافية للنشر، القاهرة-مصر- 2001، ص:

³كرم شلي: الإنتاج التلفزيوني و فنون الإخراج، مكتبة التراث الإسلامي، القاهرة-مصر- ص: 148، 149.

السورية، و قد ساهمت الإضاءة في دراما البيئة الدمشقية في خلق جو درامي منسجم، و أعطت التأثير المطلوب للصورة بجعل الأجسام و الألوان و الأماكن أكثر إضاءة ووضوحا.

3- **الديكور:** يعد الديكور و الإكسسوارات من أكثر المحددات التي تبرز جمالية المكان، فهو المسؤول عن إعطاء الإحساس بالزمن و نقل شعور المكان إلى المشاهد.

و يبدأ اختيار الديكور المناسب من أول تحديد للمكان الذي سيتم فيه المشهد الدرامي، ولا بد أن يتكيف بناء الديكور مع خصوصية المكان ليمنح الأحداث الدرامية انسجاما وبعدا جماليا.

والصفة المميزة للديكور في الدراما التلفزيونية تكمن في قدرته على إعطائنا صورة حقيقية عن الواقع و يتصف بكونه العمود الفقري للمكان وهو يتخذ أشكالا متنوعة فقد يكون طبيعيا أو مصطنعا، داخليا أو خارجيا، و يتم اختيار الأغراض الخاصة بالديكور كالأكسسوار الثابت و المتحرك لغرض تعميق الإحساس بدلالة و تعبيرية المشهد الدرامي.¹

وللديكور وظيفتان في العمل الفني الدرامي، وظيفة درامية تكمن في إيصال المعنى وعدم الخلط بين العلامات المرسله للمشاهد، و وظيفة جمالية تكمن في تكثيف الاشتغال الجمالي المنبثق عن القص الدرامي.

ففي مسلسل (باب الحارة) و (أسعد الوراق) مثلا لاحظنا المزج بين البناء و الطبيعة في البيت الشامي، فبرزت الأرضيات الرخامية المزينة بلوحات من الفسيفساء، و الدواوين بمساندتها المغطاة بقماش الدامسكو الحريري ، و طاولات الخشب البني المزخرف باللون الأبيض، و ثريات الكريستال الفخمة التي زينت الأسقف، و نافورات الماء التي تحيط بها النباتات الفواحة ذات الألوان الزاهية و أشجار الياسمين و الليمون.

وفي المسلسل البدوي (أبواب الغيم) اعتمد مهندس الديكور ناصر جليلي على الوثيقة التاريخية في تصميم الديكور، ليرز تفاصيل الفترة التي يعالجها المسلسل باعتماد الطراز المعماري في المنطقة الشرقية من الجزيرة العربية .

4- **الشخصيات:** إن علاقة الإنسان بالمكان علاقة جدلية تتشكل من خلال عملية التأثر و التأثير بينهما، إذ الإنسان لا يحتاج فقط إلى مساحة فيزيقية جغرافية يعيش فيها، ولكنه يصبو إلى رقعة يضرب فيها بجذوره وتتأصل فيها هويته،² والأمر نفسه في الدراما التلفزيونية فثمة علاقة تأثير و تأثر بين الشخصيات و المكان الدرامي.

¹عبد الله حسين: الاشتغال الدلالي للمكان بين النص المسرحي و الفيلم السينمائي، مرجع سابق، ص: 600، 601.

²محبوبة محمد آبادي: جماليات المكان في قصص سعيد حورانية، مرجع سابق، ص: 89.

إذ يعد المكان عنصراً أساسياً في تشكيل بنية هذه الشخصيات، كما أنه لا يتشكل إلا من خلال اختراق هذه الشخصيات له و ظهورها فيه بـمميزاتها و بالأحداث التي تقوم بها فيه، و في هذا الصدد يقول حسن بحراوي: " إن المكان لا يتشكل إلا باختراق الشخصيات له، ولا تتم الأحداث إلا بالتقاء الشخصيات في المكان"¹

فارتباط الشخصيات بالمكان في الدراما السورية تتجلى جماليته في العديد من الأعمال فقد قدم مسلسل (أيام شامية) و (نهاية رجل شجاع) نموذجاً للشخصية و السياق التاريخي و المكان من خلال إبراز العلاقة بين الشخصية و الحارة و البلد و العالم في حدث واحد، أما المسلسلات التاريخية السورية مثل (قمر بني هاشم)،(خالد بن الوليد)، فقد وفقت في توطيد العلاقة بين الشخصيات و الحدث التاريخي في المكان.

سادساً/ الوظيفة الجمالية للمكان في الدراما التلفزيونية السورية: يعتبر المكان في الأعمال الدرامية بنية أساسية و عنصراً مهماً من عناصر السيناريو لا يمكن إغفاله إخراجياً.

ومما تجدر الإشارة إليه في هذا الصدد هو اهتمام مخرجي الكثير من الأعمال الدرامية العربية بالتصوير خارج الاستوديوهات المغلقة والاحتفاء بالجماليات التي تزخر بها البيئة العربية فأضحى المكان تشكيلاً إبداعياً بالدرجة الأولى، بل قد يكون الهدف من العمل كله فالكثير من الأعمال تتجلى فيها سطوة المكان من خلال عنونتها بأسماء أمكنة مثل (باب الحارة)، (حمام القيشاني)، (ربيع قرطبة)، (ليالي الصالحية)، وغيرها.

وقد شكل الخروج من الفضاءات المغلقة و جو التصوير داخل جدران العزل الصوتي الاصطناعي نقلة نوعية تمكن من خلالها المخرج العربي من تحرير رؤيته الفنية، فبدأ التفكير في اختيار أماكن للتصوير ذات أبعاد جمالية دالة.

وقد اختارت الدراما السورية التصوير المبكر في الأماكن الحقيقية معتمدة على خصوصية المنطقة الجغرافية وجوها المتنوع بين البحر و الجبال و السهول و الصحاري، معاكسة بذلك الدراما المصرية التي ضلت حبيسة الاستديو الداخلي إلى وقت متأخر.

فالمكان في الدراما التلفزيونية لم يعد مجرد خلفية إيضاحية تدلنا على مكان الحدث أو تاريخه، بل أصبح جزءاً من النسيج الفني، و ركناً أساسياً من أركان العملية الإبداعية الدرامية التي تثري المصادر البصرية للمخرج، ويكتسب المكان في الدراما التلفزيونية جماليته من خلال توظيف عناصره و محدداته ذات الدلالات الإيحائية بشكل ينسجم و يتوافق مع المرحلة المرئية للفضاءات و الأزمنة المختلفة، فظهر المكان في العديد من الأعمال الدرامية العربية بأشكال جميلة و مختلفة تنوعت بين الحارات و أرصفتها و جدران البيوت و دواخلها وعراقة الأسواق و تفاصيلها، والحقول الريفية وظلال الأشجار و أمواج البحار وأسرار الآثار.

¹ حسن بحراوي: بنية الشكل الروائي الفضاء-الزمن-الشخصية- ط1، المركز الثقافي العربي للنشر والتوزيع، بيروت-لبنان- 1990، ص: 29.

خلاصة: من خلال ما مر معنا نخلص إلى القول:

- إن عناصر العمل الدرامي لا تكتمل دون التركيز على المكان و تقديمه بمهنية و حرفية عالية.
- اختيار المكان الذي تحدث فيه مجريات العمل الدرامي يتطلب الكثير من الدقة، لأن الفضاء غير المناسب يساهم في فشله.
- المكان الدرامي عنصر من العناصر غير اللفظية يحمل إichاءات و معان جمالية.
- يكتسب المكان جمالياته من كونه وعاء يضم كل عناصر العمل الدرامي.
- المكان في الدراما التلفزيونية يحدد هوية البيئة الجغرافية و الاجتماعية و الخطاب الجمالي، و يكون هو ذاته هوية بصرية للعمل الدرامي.
- للمكان علاقة وثيقة بالزمن الذي تدور فيه الأحداث، من شأنها أن تغني العمل الدرامي و تميزه عن غيره.
- توزيع الإضاءة بصورة صحيحة تعطي قدرة على خلق مزاج نفسي يحدد ملامح المكان والزمان، و يخلق الجو العام للتعبير عن الموقف الدرامي.
- يعد عنصر الديكور و ملحقاته موحيات ذهنية عميقة تساعد على إبراز الجماليات المؤثرة في المشاهد.
- هناك علاقة وثيقة بين المكان و الشخصية في الدراما، فالمكان يعد جزءا من بناء الشخصية الدرامية.
- و أخيرا يمكننا القول أن المكان قاسم مشترك بين كل الفنون و لكنه يمتاز بخاصية في كل فن تختلف عن الآخر.